

## الفصل الثامن عشر

### الكاتب المؤمن<sup>(١)</sup>

نلمح في ثنايا هذه المسرحية تضحية إليوب بالقيمة الشعرية ، فالكلمات بنبراتها ووقعها أقرب إلى النثر منها إلى الشعر : كما أن الأبيات أصبحت أكثر طوعاً لبنانه بالنسبة للمرحية السالفة وهي « حفل الكوكيتيل » . هذا إلى أن إليوب قد أولى الحكمة المسرحية اهتماماً زائداً . ومن ناحية شخوص المسرحية نجد أنه قد أفلح عن فكرة العملاق الذي تلتف حوله بقية الشخصيات ونعني بذلك السير هنرى الطيب النفساني وعلاقة الشخصيات الأخرى جميعها به في مسرحية « حفل الكوكيتيل » وكيف أنهم يتحركون حول نقطة الارتكاز هذه بل إنهم يتصرفون بناء على مشورته وطبقاً لنصائحه حتى بدوا وكأنهم أقزام بالنسبة له . وقد ظهرت هذه المسرحية لأول مرة في احتفال أدنبرا الذي استمر من اليوم الخامس والعشرين من أغسطس إلى الخامس من سبتمبر سنة ١٩٥٣ . وتبدأ أحداثها في مكتب السير كلود ومخامار رجل الأعمال ومعه سكرتيره الخاص أجرسون . نفهم من الحوار بينهما أن أجرسون على وشك الإحالة إلى المعاش بعد ثلاثين عاماً قضاها في الخدمة المتواصلة . وقبل أن يتقاعد أجرسون ويسلم مهام منصبه إلى خلفه الكاتب الصغير كولبي سميكنز ، طلب منه السير كاود أن يؤدي له خدمة أخيرة إذ أن زوجته الليدى إليزابيث ستعود في المساء من سويسرا وعليه أن يستقبلها في المطار ويحبرها في الطريق إلى المنزل أن كولبي الشاب الصغير الذي يموى الموسيقى سيخلفه في وظيفته . إن شيئاً واحداً سيحتفظ به في طي الكتمان وهو ألا يحبر الليدى إليزابيث بأن كولبي هو الابن غير الشرعي

لزوجها السير كلود . وما يزيد المسألة تعقيداً أنها تعلم من قبل أن زوجها له ابنة غير شرعية تدعى لوكاستا أنجيل ، كما أنها هي ( أى الليدى إليزابيث ) لم تنجب من السير كلود أطفالاً وإنما لها ابناً غير شرعى قد اختفى ولم تعرف له مكاناً . إن لوكاستا مخطوبة وستزوج عما قريب من كاجان الشاب المرح الذى ينتظر الجميع له مستقبلاً باهراً فى الأوساط المالية بلندن .

ومخروج السير كلود لإنجاز بعض أعماله يدخل كاجان ومعه خطيبته لوكاستا التى تلتقى بكولبى للمرة الأولى فتحبره أنها كانت تعمل بإحدى المؤسسات لكنها فصلت لإعمالها ، ولما شعرت بالحاجة والعوز جاءت تطلب شيئاً من المال لتسد رمقها وليساعدتها على مواجهة أعباء الحياة . ولما طلبت من أجرسون الذى شاهد هذه المناقشة بينها وبين كولبى أن يساعدها فى الأمر ، أخبرها بأنه قد أحيل إلى المعاش ، وأن كولبى لا يمكنه التصرف إلا بإذن السير كلود الذى يصر على أن يتصرف فى مثل هذه المشكلات بنفسه . ولهذا فإنه ينصحها بانتظاره . وبعد خروجها مع خطيبها يعلم كولبى من أجرسون أنها فتاة مستهتره وأنها عبء ثقيل على كاهل السير كلود ، لكن أجرسون يخفى عليه حقيقة الأمر بأنها ابنة السير كلود غير الشرعية .

وفجأة تدخل الليدى إليزابيث فى اللحظة التى فيها ينهم أجرسون بالذهاب لاستقبالها فى المطار ، ويعلم أجرسون والسير كلود أنها غيرت خططها وجاءت بالمطار إلى محطة فيكتوريا بلندن ، ذلك أن صديقها ميلدرد ديفيريل التى كانت معها فى أوروبا وجاءت معها إلى لندن لا تهوى ركوب الطائرات ، فهى كثيراً ما تصاب بدوار فى رأسها عند ركوب الطائرة . ويتظاهر أجرسون بأنه ترك الخدمة لاعتلال صحته ، وهنا تحمق الليدى إليزابيث فى وجه كولبى الذى سيخلفه ، وتتفرس فيه المرة بعد الأخرى ، ثم تنتقل فى حديثها من موضوع إلى آخر دون أن يكون هناك أى ترابط بينها فهى مصابة بفقدان الذاكرة ، وقد سافرت إلى سويسرا للعلاج من هذا المرض النفسانى . فهى تارة تتحدث عن

تناسخ الأرواح وعن النبائين ثم البصيرة والإلهام والأمور الخارقة للعادة .  
 وبخروجها ثم خروج أجرسون يخلو المكان لكولبي والسير كلود الذى يقول  
 لكاتبه إنه فى صباحه كان يهوى صناعة الحزف ، وإنه كان يتخذ من الفن ذريعة  
 للتخلص من عالم الواقع المرير . فالقن فى نظره هو المنفذ الوحيد الذى نطل منه  
 على عالم المثل ، لكن والده قد غير مجرى حياته فاتجه إلى الأعمال المالية .  
 وبالنسبة لكولبي أيضاً فقد كان يهوى الموسيقى ، وكان يوده إشباع هذه الرغبة  
 لكن الظروف لم تكن مواتية . وهنا نلمح التقاءهما فى رغبة كل منهما الجارحة  
 لإشباع هذه الميول الفنية . ففى إشباعها كما يقول السير كلود « تطلع إلى عالم  
 الرؤيا حيث الحقيقة الكلية كامنة . » وهو بالإضافة إلى ذلك يحتفظ ببعض  
 القطع الخزفية الفنية فى حجرة خاصة بمنزله حتى إذا ما خلا لنفسه وتأمل فى روعتها  
 وجمالها ازداد إيماناً بوجود الخالق وبقدوته على إبداع هذا الكون العجيب . ويخرج  
 من هذه النشوة الروحية بشعور فياض بالاتحاد مع عالم « الحقيقة » وبقبول عالم  
 المراتب على علاقته بل واحتمال ما فيه من منغصات وبصبر وأناة . إن فى التامل  
 هروب من الواقع . أما القدرة على الإعلاء فهى التسامى فوق الواقع . والعالم الذى  
 هربت إليه اللىدى إليزابيث أو بالأحرى ذلك العالم الذى فرض نفسه عليها  
 فرضاً . هو عالم الخيالات وهو لا يمت للواقع بأذى صلة . فلا غرو إن ذهبت  
 إليزابيث ضحية لتلك الهواجس التى تختلقها .

أما فى الفصل الثانى فإننا ننتقل إلى مسكن كولبي ونعلم من الحوار بينه وبين  
 لوكاستا أنها معجبة بشخصيته وأخلاقه وتلييته لنداء الواقع حينما ترك هوايته الموسيقية  
 المفضلة والتحق بوظيفته الجديدة ليعمل كاتباً للسير كلود . إنها تحس براحته  
 النفسية وتصارحه بأنها تحسده عليها ، وتشعر أيضاً بأنه مسيطر تماماً على عالمه  
 الداخلى الذى تطلق عليه باسم « البستان الحنى » الذى يهرع إليه كلما تعقدت  
 الأمور واشتدت الأزمت . أما هى فلقد أصبحت حياتها كالريشة فى مهب  
 الرياح تنقادفها الأمواج يمناً ويسرة ، فهى تحس بوجودها وبكيانها بصعوبة

بالغة . وتبين في آخر الأمر أن السبب في ذلك مرده إلى ما ينقصها من معرفة وإحساس بقيمة الفنون . فتطلب من كولبي في إلحاح أن يدعوها إلى الحفلات الموسيقية بل ويلقنها شيئاً عن أصول الموسيقى وتطورها .

ترى هل هذا هو الفهم الصحيح لما تصبو إليه أنفسنا لمعرفة « الحقيقة » ؟ لقد طمأن كولبي لوكاستا على مسلكها في هذا الاتجاه ، واستراح فؤادها حينما عرفت منه أنها أحسن حالاً من غيرها في فهم تلك المشاكل . وأمام هذا الإقناع شعرت برغبة ملحّة في داخلها أن تفصح له عن أسرارها إذ أنها ركزت فيه كل ثقتها ، فتخبره بأنها ابنة السير كلود غير الشرعية ، وكيف أنها تكره والدتها بل وتمقتها لسوء خلقها ، فلقد كانت تشرب الخمر وتلعب الميسر بالتفود التي كان يرسلها لها السير كلود شهرياً . فاستدانت والدتها واضطرت لتغيير مسكنها عدة مرات . وأخيراً توفيت في نوبة من نوبات الإفراط في شرب الخمر ، ولم تتجاوز لوكاستا إذ ذاك سوى الثامنة من عمرها، فتهدها أبوها بالتربية . ولما كبرت شعرت بنظرات الحجل تلاحقها في كل مكان وحتى أبوها كان لا يتصور رؤيتها أمامه . لقد نبذها المجتمع ونفر منها ، وعاشت تلك السنوات الماضية في حسرة وألم إلى أن تعرف بها كاجان فأزال عنها تلك الغمة الثقيلة التي وطأت على قلبها وكادت أن تكتم أنفاسها . ومع أنها شعرت بشيء من الراحة النفسية بعد خطوبتها إلا أن الإحساس بالماضي قد عاودها مرة أخرى ، وكلما صممت على الفرار منه ازداد ملاحقته إياها وسيطرته عليها في قوة وعنفوان . وأمام ياسها رأت أن تفصح لكولبي بكل شيء عن ماضيها .

وبدخول كاجان يعلم منه كولبي أنه كان طفلاً لقيطاً لا يعرف أبويه ، ولهذا فإنه يبذل جهد طاقته في سبيل أن يشعر المجتمع بوجوده وبكيانه . وهو الآن يشق طريقه بنجاح في مجال الأعمال التجارية والمالية بلندن . وبعد خروج كاجان وخطيبته تدخل ليدى إليزابيث وترى صورة معلقة على الحائط ذات إطار فضي ، فيخبرها كولبي أنها صورة خالته التي قامت بتريبتها ، ذلك أنه

لا يعرف أبويه ، فلقد كان هو الآخر طفلاً لقيطاً أيضاً وماتت والدته عقب ميلاده مباشرة . وكانت خالته وتدعى مسز جازارد تسكن في بلدة تيدينجتون بالقرب من لندن ، وهي تعيش بمفردها بعد أن توفي زوجها ، فأخذت ترعاه إلى أن شب عن الطوق . وكان السير كلود يرسل لها شهرياً نفقات المعيشة والمصروفات المدرسية اللازمة لكولبي .

إن الليدي إليزابيث تظن أيضاً أن كولبي هو ابنها غير الشرعي من صديقها توفى الذي افترسه خريبت في تنجانيقا ، وكانت قد عهدت بطفلها في ذلك الوقت لسيدة تدعى مسز جازارد في تيدينجتون أيضاً . كما أن كولبي البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً يقرب من سن ابنها المفقود ، ولهذا فإنها ترجح أن يكون كولبي هو ولدها . وعلى ذلك يستدعي السير كلود مسز جازارد وأجرسون أيضاً لإثبات بنوة كولبي .

ويبدأ الفصل الثالث في منزل السير كلود وتدخل لوكاستا لتعلن زواجها من كاجان ، وهنا يرجو أجرسون للعروسين حياة سعيدة ، ثم يعلم كولبي من لوكاستا أنها أخت له وهي تنظر إليه على أنه شخصية تختلف كل الاختلاف عن بقية الأفراد الذين لاقتهم في حياتها . وبمجيء مسز جازارد يعلم الجميع حقيقة الأمر وأن الطفل الذي كانت تقوم بتربيته لم يكن كولبي ، ذلك أنها أرسلته منذ حدثته إلى جيرانها وهم عائلة كاجان حينما انقطع المبلغ الشهري الذي كان يصلها لتربية الطفل ، وهي لا تعرف اسم والديه . أما سبب انقطاع هذا المبلغ فهو قتل توفى في تنجانيقا . وهو بالطبع الابن غير الشرعي لليدي إليزابيث وهو أيضاً خطيب لوكاستا .

أما بالنسبة لكولبي فلقد أذاعت مسز جازارد سرّاً جديداً عنه وهو أنه الابن الشرعي لها من زوجها هيربرت جازارد ولا يمت بصلة للسير كلود . ولإيضاح الأمر أخبرت السير كلود بأنها كانت حاملاً في الوقت الذي كان يتردد فيه على أختها التي توفيت بعد قليل والجنين في أحشائها . وكان السير

كلود في ذلك الوقت في كندا فلما عاد أخبرته بأن المولود طفله هو ، ذلك أن زوجها ميربرت توفى ولم يترك لها شيئاً فاخترعت هذه القصة لكي ما ينفق كلود على المولود .

وبعد سماع كولبي هذه الأخبار التي جاءت بها مسز جاراود تنحى عن وظيفته في مكتب السير كلود ككاتبه المؤمن ، إذ أن هذه الوظيفة لا تتناسب مع مواهبه الموسيقية . وفي الحال أخبره أجرسون بوظيفة خالية لعازف الأرغن في كنيسة جوشوا بارك ، فهو يسكن في هذه المنطقة وينصح به بالتقدم لهذه الوظيفة بدلا من أن يعمل كاتباً . ويحس كلود بالأسى لرحيل كولبي عنه بعد أن عقد عليه آمالا عريضة .

وأخيراً شعر كولبي للمرة الأولى في حياته بدماه الحرية تدب في عروقه بعد أن تخلص من السير كلود ومكتبه وزوجته بانفعالاتها وهواجسها . وخرج من منزل كلود حرراً طليقاً يسعى لكسب رزقه في غير تكلف مستجيباً لما تخليه عليه ميوله ورغباته . وقد وعده أجرسون في شجاعة وكرم أن يغلى له حجرة في منزله ليقم معه هو وزوجته إلى أن تستقر أموره .

هذه المسرحية أو بالأحرى هذه الملهاة تختلف اختلافاً بيناً عن المسرحيات السالفة التي كتبها إليوت . ذلك أن عنصر الشر غير متأصل في « حبكة » هذه الملهاة ، كما أن مبدأ تكفير الإنسان عن ذنوبه الماضية لا يكون ركناً أساسياً فيها . وهي خالية أيضاً من الشعور بالإثم ومن الرغبة في التناهي والإقلاع عن حب الذات — وهذه العناصر كلها تزخر بها المسرحيات السابقة . أما هذه الملهاة فإنها تتعرض لمشكلة السعادة الفردية وتحقيقتها قد يكون تارة على حساب سعادة الآخرين كما هو الحال بالنسبة للسير كلود وكولبي ، أو قد يكون باختيار الطريقتين المهني المناسب تارة أخرى كما ترك كولبي وظيفته الأولى ليصبح عازفاً . وهي تعرض لنا أيضاً فكرة التعارض بين الواقعية والمثالية وتبين لنا الصعوبات

الجمعة التي تواجهنا في محاولة التوفيق بينهما ، ويتضح لنا ذلك في محاولة السير كلود وهو رجل الأعمال التوفيق بين مهامه المالية وميوله الفنية .

وهذه الملهاة تتعرض أيضاً لمشكلة اللقطاء من الوجهة الاجتماعية . وقد اشتمت

إليوت هذا الاتجاه من مسرحية أيون ليوربيديس . وأيون هو الابن غير الشرعي لإله الشمس والتطهير أبوللون من السيدة كريوسا التي تنتمي إلى عائلة نبيلة الأصل وهي زوجة إكسوئوس . وبعد مولد الطفل حملته هرميس رسول الآلهة وجاء به إلى أحد المعابد حيث تولته العرافة المشرفة على المعبد ، وظنت والدته أن الوحوش الضارية قد افترسته . وقد رأى أبوللون أن يهب الطفل لكريوسا وإكسوئوس لأنهما لم ينجبا أطفالاً ، فأمر العرافة أن تعطى الطفل لوالدته التي عرفته في الحال لأنه كان مقمطاً في اللقائف التي وضعت فيها . ولم يعلم إكسوئوس أن أيون هو الابن غير الشرعي لزوجته من أبوللون . ولما شب أيون عن الطوق تخبره والدته بأن أبوه هو الإله أبوللون . وهنا تنزل أثينا ربة الحكمة عند الإغريق من علياء سمائها لتؤكد صحة الأنباء التي جاءت بها كريوسا .

وجه الشبه بين الأسطورة الإغريقية وملهاة إليوت واضح كل الوضوح ،

فكل من كولبي وكاجان يمثل أيون ، والسير كلود هو أكسوئوس ، والليدي إليزابيث هي كريوسا ، ومسر جازارد هي العرافة التي سلمت أيون إلى كريوسا بناء على رغبة الإله أبوللون مما يذكركنا في ملهاة إليوت بكاجان الذي سلمته مسر جازارد لعائلة كاجان بعد أن قتل والده توفى في تنجانيقا .

لكن مسر جازارد تختلف عن العرافة في أنها خدعت السير كلود وسلبت منه أموالاً طائلة لمدة ربع قرن تقريباً على زعم أنها تقوم بتربية ابنه غير الشرعي ، ولولا أنه استدعاها لمعرفة حقيقة الأمر بناء على طلب كولبي وليدي إليزابيث لما أوضحت الستار عن هذا الخداع . لقد تبين في آخر الأمر أن كولبي هو ابنها الشرعي .